﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد التّرهيب يحسُن التّرغيب، عذلًا من الله تعالى وفضلًا

مناسبة الآية لما قبلها أنّ هودًا عليه السلام، لمّا دعا قومه مشيرًا إلى ترهيبهم مستدلًّا على الصّدق بنفي الغرض، رغّبهم في إدامة الخوف ممّا مضى بقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، ومَن هم أعزّ النّاس عليّ"[1]، "اطلبوا من خالقكم أن يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، ثمّ ارجعوا إليه. إنّكم إن فعلتم ذلك، يُرْسِلِ المطر عليكم متتابعًا، فتكثر خيراتكم، ويزدكم قوّة إلى قوّتكم الّتي تغترُّون بها، ولا تعرضوا عمّا أدعوكم إليه، مصمّمين على الإجرام الّذي يرديكم في الهلاك"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾: الغَفْرُ في الأصْلِ: التَّغْطِيَةُ والسَّتْرُ، ويُرادُ بِها التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقالُ: غَفَرَ اللّٰهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوزَ عنْها[3]. والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللّٰه هو أن يَصُون العَبد من أن يمسَّه العذاب[4]. والمراد من الاستِغْفار في الآية: طَلَبُ المَغْفِرَةِ لِلذَّنْبِ، أي: طَلَبُ عَدَمِ المُؤاخَذَةِ بِما مَضَى منهم مِنَ الشِّرْكِ[5]، فهو توبةٌ وإيمانٌ واستغفارٌ عمّا كان.

2) ﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أصلُ (درّ): يَدُلُّ على تَولُّدِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ، فالدَّرُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 316.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.

دَرُّ اللَّبَنِ، والدَّرَّةُ دَرَّةُ السَّحابِ: صَبُّهُ، ويُقالُ: سَحابٌ مدْرارٌ. والمدرارُ: الكثيرُ الدَّرِّ، وهو من أبنية المبالغة. ومنْ ذلكَ قَولُهُم: لِلّهِ دَرُّهُ، أي: عَمَلُهُ، وكَأَنَّهُ شُبِّهَ بِالدَّرِّ الَّذي يَكُونُ من ذَواتِ الدَّرِّ. ومن البابِ: دَرَّتْ حَلُوبَةُ المُسلِمينَ، أي: فَيْئُهُم وخَراجُهُم، ولِهذِهِ السُّوقِ درَّةٌ، أي نَفاقٌ، كَأَنَّها قَدْ دَرَّتْ. وهُو خِلافُ الغِرارِ، "قَوْله: يدرّ لَبنها، أي: تمتلئ ثدياها منْهُ، بِفَتْح الياء وكسر الدّال، ويكون أيْضًا بِمَعْنى سالَتْ يُقال درّت السَّماء، إذا أمْطرت، وسماء مدرار: غزيرة المَطَر"[1]. والمقصود بقوله: ﴿مِّدْرَارًا﴾ في الآية: صِيغَةُ مُبالَغَةٍ من الدُّرُورِ، وهو الصَّبُّ، أي: غَزِيرًا.

3) ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، منْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ. وجَلَسَ ممّا يَلِينِي، أي: يُقارِبُنِي[2]. والولايَةُ: تَولِّي الأمرِ، فإذا عُدِّي (تَولَّى) بنفسِه اقتَضَى معنَى الولايَةِ، وحُصُولِهِ في أقْرَبِ المواضِعِ، وإذا عُدِّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربِهِ. فمنَ الأوَّلِ قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: 63][3]. والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ: وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ[4].

4) ﴿مُجْرِمِينَ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ من الجَرْم، وهو: القَطْعُ[5]، وقِيل أصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَرِيمَةُ أهْلِهِ، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[6]. والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْم وهُو الإثْمُ العَظِيمُ، وأعْظَمُ بالإجرام الكفْر[7]، يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا أو جَنَى جنايةً[8]. والمُجْرِمُ في اصطلاحِ القُرآنِ هو الكافِرُ، كقولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطفّفين: 29]، وهو المراد هنا.

(1) القاضي عِياض، مشارق الأنوار: 1/255.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/102.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/210.
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من أطاعَ المعبودَ نـالَ المطلوبَ وحقَّق المرغوب

قال الحقُّ ﷻ حكايةً عن هود عليه السلام أنَّه خاطبَ قومَه: ويا قَوْمي، اطلُبوا من رَبِّكم سَترَ ذُنوبِكم الماضيةِ، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تستقبِلونَه، وذلك بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى عبادتِه وحدَه وطاعتِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يُرسِلِ المطرَ عليكم، فتُخصِب الأرضُ، ويكثُر خَيرُها، ويَزِدْكم اللهُ - إن استغفَرتُم وتُبتُم - شِدَّةً مُضافةً إلى شِدَّتِكم، وأموالًا وأولادًا، ولا تُعرِضوا عمّا أدعوكم إليه من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، وتُصِرُّوا على الكُفرِ والعِصيان[1]، ومن التزم بالمطلوب، نال من الله المرغوب، فقد بيَّنت هذه الآية الكريمة أمرين مهمَّين: الأوَّل: أنّ غايةَ ما يُرادُ من السَّعاداتِ الدُّنيويّة: كثرةُ النِّعم، وكمالُ القُوَّةِ للاستمتاعِ بها. والثّاني: نلحظ كثيرًا ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التَّوبةِ؛ ليكون الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلبِ المغفرةِ باللِّسانِ، والتَّوبةُ عبارةً عن الإقلاع عن الذُّنوبِ بالقُلوبِ والجوارح[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطفِ بالواو:

رُسُلُ الله تعالى يتحرَّكون بعنايةٍ بالغةٍ ورعايةٍ عاليةٍ

عُطف قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ على قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فأعيد الخطاب بـ (يا قوم) تأكيدًا لما في الخطاب به أوّل مرّة من الاستعطاف وبيان أنّه منهم إظهارًا لحرصه عليهم، وكونه يبتغي لهم الخير؛ لأنّهم قومه، فالعطف بالواو بين الجمل المفتتحة بالنّداء ينبّه على اتّصال بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/445، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/51، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 383.

(2) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/407.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.

دلالةُ تَكرارِ النّداء:

النّـداء أدعى لإيقاظ السّامع، والانتباه إلى الخطاب النّافع

بدأ هود ﷺ خطاب قومه كما حكاه عنه قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾، بالنّداء تنبيهًا لهم، وتهيئةً لمسامعهم، وإيقاظًا لهم على أهميّة ما سيقوله لهم، فالنّداء يدلّ على أهميّة مضمون الخطاب الّذي سيأتي بعده، حتّى يأخذ السّامع أُهبته عند سماعه مضمون الخطاب. والمعنى: "ويا قوم استغفروا ربّكم من ذنوبكم، ثمّ توبوا إليه توبةً نصوحًا، إنّكم إن فعلتم ذلك، يرسل المطر عليكم كثيرًا، فأنتم في حاجة إليه، ويزدكم قوّةً إلى قوّتكم، وعزًّا زيادة على عزّكم"[1]، وهو ما يُبرهن على شديدِ عنايته بقومه بتَكرارِ هذا النِّداء، فإنَّ النِّداءَ إذا تكرَّر نبَّه وأيقظ، ودلَّ على عنايةِ هؤلاءِ الرُّسلِ الكرام بأقوامهم، وأنَّهم ما بلغوا رفعًا للتَّكليفِ، ودفعًا للاعتذار.

نكتة الإضافة:

نسبة القوم إلى النّفس، تأكيدٌ لتمحيض النّصح

كرّر النّظم الجليل حكاية عن هود ﷺ، خطابه لقومه بإضافتهم إلى نفسه في قوله عزّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾، بيانًا لكونهم أعزّ النّاس عليه[2]، وذلك لبيان إصراره وطمعه بتليين قلوبهم، وتأكيد صدقه وحرصه على هدايتهم، فإنّ النّاس أكثر ثقة بمن يعلمون من ثقتهم بمن لا يعلمون، فتكرار قوله (يا قوم)، هو التعطّف وتليين القلوب، رغبةً في صلاحهم، وشفقةً عليهم من سوء العقبى، والأيلولة إلى الهلاك، إذا استمرّوا على هذا العناد والفساد.

بلاغةُ المجازِ المرسل في لفظ الاستغفار:

الاستغفارُ مآلُ الإيمان وتركُ الأوثان

عبّر النّظم الكريم على طريقة الإيجاز البليغ بالاستغفار كنايةً عن الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 2/129.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، فقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ أمرٌ بالاستغفار والمرادُ الإيمانُ وتركُ عقيدة الشّرك على سبيل المجاز وعلاقته المسبَّبيَّة، وهو في طلب الغفران، بقول: (أستغفر الله) حقيقة؛ "لأنّ الاستغفار من الله يستلزم الاعتراف بوجوده، ويستلزم اعتراف المستغفِر بذنبٍ في جانبه، ولم يكن لهم ذنب قبل مجيء هود عليه السلام إليهم، غيرَ ذنب الإشراك؛ إذ لم يكن له شرع من قبل، وأمّا ذنب الإشراك فهو متقرّر من الشّرائع السّابقة جميعها، فكان معلومًا بالضّرورة؛ فكان الأمر بالاستغفار جامعًا لجميع هذه المعاني تصريحًا وتكنيةً"[1].

فذكرُ الأمر بالاستغفار بيانُ المطلوب بالمآل، فكأنَّه قال: آمنوا وانبذوا الشِّرك، واستغفروا الله تعالى بعد ذلك على ماضيكم، وتوبوا إليه توبةً نصوحًا، فطوى ذكر شرط الاستغفار المقبول وهو الإيمان، تنبيهًا على أنَّ القومَ يعلمون باطلَهم ويُصرُّون عليه، فكان هذا داعية ذكر الاستغفار.

فائدةُ الإضافة:

الدّعوة إلى الله بالتّذكير بإنعامه أدعـى للإقناع بفضله وإكرامه

أضاف هود عليه السلام لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير قومه، حال مخاطبتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ وذلك "للإشارةِ إلى ما يبعثهم على عبادته، وهو أنّه الذي خلقهم وربّاهُم، ودبّر أمورهم بحكمته وإرادته"[2]، ففي الإضافةِ تثوير العقلِ للفهم، وتحريك القلب للاستجابةِ، وهمز الفؤاد لليقظة، فالخالق المربِّي الرّازق هو صاحبُ الإنعام، وذو الإكرام سبحانه، فهي دعوةٌ لاستغفار الحقيقِ بالحقِّ، لا الوهم الحقيق بالنَّبذ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95 - 96.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

معنى حرفِ التراخي ودلالتُه:

لا يُتصوَّرُ تحقيقُ التّوبةِ النَّصوح قبل الاستغفار اللَّحوح

آثر النّظم الكريم عطفَ الأمر بالتّوبة على الأمر بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بحرف العطف (ثمّ)، إشارةً إلى أنَّ رتبةَ التّوبة أعلى من رتبةِ الاستغفار، أي: تسنّموا "عالي هذه الرّتبة بأن تطلبوا ستر الله لذنوبكم، ثمّ ترجعوا إلى طاعته بالنّدم والإقلاع والاستمرار"[1]، فهي للتّرتيب الرّتبي؛ لأنّ الدّوام على الإقلاع عن الذّنوب، أعلى منزلة من طلب العفو عمّا سلف[2]. وهذا التَّراخي الرُّتَبي يُلاحظُ فيه التَّراخي الزَّماني؛ إذ لا يُتصوَّر تحقيق التَّوبة النَّصوح قبل الاستغفار اللَّحوح.

نكتةُ تقديم الاستغفارِ:

التَّدرّج بطريقِ التَّرقِّي من الأخفِّ إلى الأثقل

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، قدّم الاستغفار على التّوبة؛ لأنّ الاستغفار نوعٌ من الدّعاء؛ فهو طلب المغفرة، أمّا التّوبة فهي الإقلاع والدّوام على التّرك، وعدم العودة، فالتّوبة أعلى شأنًا، فبدأ بالأقلّ رتبة، ثمّ ترقّى إلى الأعلى؛ ليأتي ترتيب التّكليف من الأخفّ على النّفوس إلى الأثقل عليها؛ لأنّ التّوبة تقتضي التّغيير في السّلوك والفعل، وليس مجرّد صيغة من الألفاظ لطلب العفو، والاستغفارُ مقدِّمة التَّوبة، فلا يُتصوَّر بدونِها.

فائدةُ توالي الأوامر:

تعقيب الاستغفار بالتّوبة دليلٌ على بشاعةِ الأفعال وشناعة الأعمال

في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، جمع النّظم الكريم الأمرَ بالاستغفارِ والتّوبة في هذه الآية؛ لأنّهما مرتكزان مهمّان في منهج الإقبال على الله، ويلخّصان دعوة هود ﷺ لقومه، كما أنّ الجمع بينهما يدلّ على تأكيد الطّلب بذلك، إشارة إلى الأعمال بعد الإيمان، أي "اطلبوا مغفرة الله بالإيمان، ثمّ توسّلوا إليها بالتّوبة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/96.

وأيضاً التّبرّي عن الغير، إنّما يكون بعد الإيمان منهم بالله، والرّغبة فيما عنده"[1]، كما أنّ الجمع بين طلب المغفرة وبين الإقلاع عنها، والنّدم بيان لأوّل الأعمال الّتي عليهم القيام بها إثر إيمانهم، تهويلًا لفحش ما كانوا يقومون به، وأنَّهم بحاجةٍ إلى توبةٍ بعد طول استغفار، وهو إشعارٌ لهم بجَسامةِ أفعالِهم، وشناعةِ أعمالهم.

دلالةُ جوابِ الأمرِ وفائدتُه:

دفعُ أوهامِ الافتقارِ عند تحقيقِ الاستغفار

جعل النّظم الجليل جوابَ الأمر: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ قولَه تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ وهو الجزاءُ الذي ينتظرهم، إذا تحقَّق منهم الاستغفار، فجعل نتيجة الاستغفار ما يسرّهم من زيادة الخير والقوّة، وقد قصد هود ﷺ من ذلك "استمالتَهم إلى الإيمان، وترغيبَهم فيه بكثرة المطر، وزيادة القوّة؛ لأنّهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حُرّاصًا عليها أشدّ الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء"[2]، كما أنَّ القومَ كان عندهم هاجس الخوفِ من الفقر إن آمنوا، ولا سيَّما أنهم اتَّهموا نوحًا ﷺ بأنَّه قد اتَّبعه الأرذلون، فكان هذا عدةً كريمةً بأن يُغنيهم الله تعالى من واسع فضلِه، وأن يُديم عليهم ما كان لهم.

بلاغةُ اجتماعِ الاستعارةِ والمجازِ المرسل:

المبالغةُ في الرِّزقِ الوفيرِ والتَّعريضُ بمصدرِ العذابِ الكبير

في لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ استعارةٌ فقد شبَّه السَّماءَ بالضِّرع التي تدرُّ اللّبن، فحذف المشبَّه به وذَكَرَ لازمًا من لوازمه وهو ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة الأصلية.

كما أنَّ فيه مجازًا مرسلًا، وعلاقته المحليّة؛ إذ أطلق السَّماءَ والمراد السَّحاب، وعبّر عنه بالمكان الّذي نزل منه، من قبيل إطلاق

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/102.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

المحلّ، وإرادة الحالّ فيه، فمعنى السّماء: السّحاب أو المطر، تسميّةً للشّيء باسم مصدره[1]، ونكتةُ ذلك المبالغة في بيانِ كثرةِ الرِّزقِ النّازلِ من السَّماء في تصوير إرسال السَّماء لا المطر الذي في السَّماء فحسب، وأمارته ﴿مِّدۡرَارًا﴾.

كما أنَّ فيه تعريضًا بأنَّ هذه السَّماء سيأتيكم منها العذاب بدل الرِّزق إن عاندتم في كفرِكم، وبقيتم على حالكم.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

جزيل الإنعام على الاستغفار، بتخصيص إرسال الماء المدرار

قيّد النّظم البليغ إرسال السّماء بأنّ ماءها نازلٌ عليهم فقال عزّ ذكره: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا﴾، وهذا يصف حقيقةً واقعةً لأنّ الماء ينزل من علوّ السّماء، فالتّصريح بدلالة العلوّ لا يُراد منه الإخبار بالمعلوم، يُراد به بيان الإنعام بأنّ هذا الإرسال عليهم ليس عذابًا، بل هو نعيمٌ لأجلهم، فهو مختصّ بهم؛ ولذا قدّمه على الحال، فلم يقل: (يرسل السماء مدرارًا عليكم).

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

سعة الإنعام بنزول المطر، منحة الجليل للتّائبين من البشر

عبّر النّظم المعجز بصيغة المبالغة ﴿مِّدۡرَارًا﴾ من الدّرّ، في قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا﴾ وهي على وزن (مِفْعال)، للمبالغة في الإنعام وكثرة الماء الّتي من لوازمها وفرة الخير، وجودة الحياة ونماؤها، وهو من الألفاظ القرآنيّة الفريدةِ؛ فإرسالُ السّماء بماء الغيث المنهمر، فيه معنى السّموّ والاتّساع والغزارة، أي: هاطلة بمطر غزير متتابع[2]، وفي لفظِ ﴿مِّدۡرَارًا﴾ تشبيه نزول الماء الكثير بدرِّ اللَّبن، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

وجهُ الوعدِ بإنزالِ الماءِ:

خصّ النّظم الجليل الإنعام على عادٍ بالغيث في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/96.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؛ لأنّ الوعد بجعل السّماء عليهم مدرارًا، منسجم مع طبيعة البيئة في حضرموت، والأحقاف، وفي اليمن الخصيب، فهي بحاجة إلى الماء الغزير، لتخضرّ وتُنبِت الزّرع والثّمر، وهي قوّة اقتصاديّة، "ولقائل أن يقول: وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونيّة؟ ونقول: إنّ للكون مالكًا لكلِّ ما فيه؛ جماده ونباته وحيوانه؛ وهو سبحانه قادر، ولا يقدر كائن أن يعصي له أمرًا؛ وهو القادر أن يُخرج الأشياء عن طبيعتها؛ فإذا جاءت غيمة، وتحسب أنّها ممطرة؛ قد يأمرها الحقّ سبحانه فلا تُمطِر"[1].

الوعدُ بالإنعام على قَدْر ما تستوعبه الأفهام

نكتةُ تقديم إرسال الغيث:

جاء تقديمُ قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، وهو من بابِ تقديم السّببِ على النّتيجة، باعتبار أنّ الخصبَ سببٌ في المال، والمال سببٌ للقوّة، ولهذا قدّم هذا على ذاك، وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [الأنبياء: 30].

الأسبابُ مقدِّماتُ النَّتائج وجوامع الحوائج

غرضُ النّهي:

في قوله عزّ ذكره: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ عطف النّهي عن التّولّي على قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ والنّهي عن التّولّي عن الإيمان مع الإجرام يفصح عن ضرورة اتِّباع الإنعام بالخصب العميم، والتّمكين العظيم، بشكر المُنعم الكريم، والإيمان به ﷻ، فنهى عن استعمال تلك النّعم في الفساد والطّغيان، لتفادي سوء المنقلب، فنهاهم عن الفساد والإجرام بالقوّة التي أنعم عليهم بها، وهي إن لم تُشكَر كانت سببًا للإجرام، أي: لا تتولّوا حال كونكم بهذه القوّة فتكونوا قومًا مجرمين[2].

شكر النّعمة سبيلُ الإلهام، والتولّي طريقُ الإجرام

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6498.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717 - 3718.

دقّةُ الاستعمالِ الصَّرفي:

التّولّي عن الحقّ كلفةٌ تخالف الفطرة

في قوله عزّ ذكره: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ عبّر عن التّولّي بصيغة الافتعال، للدّلالة على أنّ التّولّي ليس من طبيعة النّفس البشريّة، إلّا بتكلّف وتعنّت، أي: لا "تكلّفوا أنفسكم غيرَ ما جُبلت عليه، من سلامة الانقياد، فتبالغُوا في الإعراض"[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

الجملةُ المتناسبةُ مع سياقِها استعمالٌ أنيقٌ وانتقاءٌ دقيق

اختلف التّعبير بالمعطوفِ في قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 11 - 12]، فيُسأل عن سرِّ ما خُصّ به كلُّ موضع بما فيه بعد قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾؟

والجواب: أنَّ آية هود بدأت بقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾؛ فلما كان الله تعالى قد قال لنوح عليه السلام: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾، وكان من البركة زيادة القوّة قوّةً، ناسبَه في قصّة هودٍ قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، أمّا آية نوح فسبقها قوله في أوّل السّورة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ [نوح: 1]؛ فلمّا كان العذاب الأليم سببًا لإهلاك المال والحرث والنّسل، ناسبه أن يكون الاستغفار سببًا لما يجلبها، بقوله: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح: 12]، كما أنَّ الجملتين تُعدّان من البيان القرآني، فكلُّ جملةٍ منهما تُفسِّر الأخرى، فذكر في كلِّ موضعٍ ما يُناسبه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستغفار والتّوبة:

اسْتَغْفَرَ اللّهَ ذنبَه: طَلَبَ منْهُ غَفْرَه[1]، فالاستغفار طلب المغفرة. أمّا التَّوْبةُ: فهي الرُّجُوعُ منَ الذَّنْبِ[2]. وهي في الشّرع: ترك الذّنب لقبحه، والنّدم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع، فقد كملت شرائط التّوبة[3]. فالاستغفار نوع من الدّعاء؛ فهو طلب المغفرة، أمّا التّوبة فهي الإقلاع والدّوام على التّرك، وعدم العودة، فالتّوبة أعلى شأنًا، فلذا قدّم ذكر الاستغفار في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾، فبدأ بالأقلّ كُلفة وجهدًا؛ لأنّ التّوبة تقتضي الإقلاع عن الفعل والتّغيير في السّلوك، فهي ليست كالاستغفار الواقع بصيغة لفظيّة لطلب العفو.

التّوبة إقلاع عن الذّنوب وندم عليها، والاستغفار طلب محوها

(1) ابن منظور، اللّسان: (غفر).
(2) الجوهري، الصّحاح: (توب).
(3) الرّاغب، المفردات: (توب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»